توماس هاردي

THOMAS HARDY O.M.

لما كتب توماس هاردي قصتهُ الاولى « كيف بنيت لي بيتاً » ونشرها في مجلة تشمبرز في مارس سنة ١٨٦٥ لم يكن احد يعتقد حتى اذكى النقاد وابعدهم نظراً ان تكون هذه القصة اول مرحلة من تلك الحياة الطويلة الحافلة بآيات الابداع في النثر والشعر التي خلدت في اواسط يناير الماضي بين مظاهر الخشوع والاجلال في دير وستمنستر مقر عظماء الانكليز ونوابغهم . والمرجح ان هاردي نفسهُ لم يكن يحلم يوماً ما في فجر حياتهِ بشيء من هذا . فانهُ كان حتى الساعة الاخيرة رديفاً بعيداً عن التظاهر وكان يوم نشر قصتهُ الاولى مكتفياً على اتقان فن هندسة البناء الذي انصرف اليهِ حينئذٍ وكان في ساعات فراغهِ فقط يكتب شيئاً من الشعر او النثر للتسلية

وُلد سنة ١٨٤٠ في بلدة بوكهامتن العليا من مقاطعة دورست بجنوب انكلترا وبقي حتى بلغ السابعة عشرة من عمرهِ قانعاً بعيشة فلاحيها الساذجة — تلك المعيشة التي رسمها في رواياتهِ بعدئذٍ بكل ما اوتيهِ من ابداع في الخيال وبلاغة وصدق في التعبير والتصوير . وكان ميالاً منذ نعومة اظفاره الى الاشتغال بهندسة البناء فلما اتيحت لهُ فرصة الانتظام الى موظفي مكتب السر ارثر بلومفلد المهندس المشهور بلندن اغتنمها وكان قد تلقى قواعد هذا الفن على مهندس في بلدهِ فساعدهُ ذلك على الامتياز بهِ ومما يدلك على انهُ مال بعقلهِ وقلبهِ الى عملهِ الجديد انهُ نال جائزة نيست على رسم هندسي وضعهُ ثم نال وسام معهد المهندسين البنائين الانكليز على رسالة وضعها في « فن البناء بالطوب الاحمر والترا كوتا »

ولكنهُ لم يسر طويلاً على هذه الطريق . لانهُ لما بلغ الثلاثين من العمر ثبت لهُ ان ميولهُ كانت قد اتجهت اتجاهاً آخر لانهُ كان قد وضع حينئذٍ روايتهُ الاولى وعنوانها « الرجل والسيدة » . وكان قد مارس نظم الشعر خلال خمس سنوات عرف في نهايتها انهُ يميل بالاكثر الى تأليف الروايات فاهمل الشعر وصبّ كل قواهُ على اتقان فن الروايات الخلاب ودسّر كل ورقة كتب عليها شطراً من الشعر ولم يعد الى النظم الا بعد ما كتب الكلمة الاخيرة في روايتهِ الاخيرة . وحينئذٍ نظم شعراً غنائيًّا بلغ فيهِ من تأجيج العاطفة وسموّ الخيال وخلابة النغم الموسيقي ودقة الملاحظة

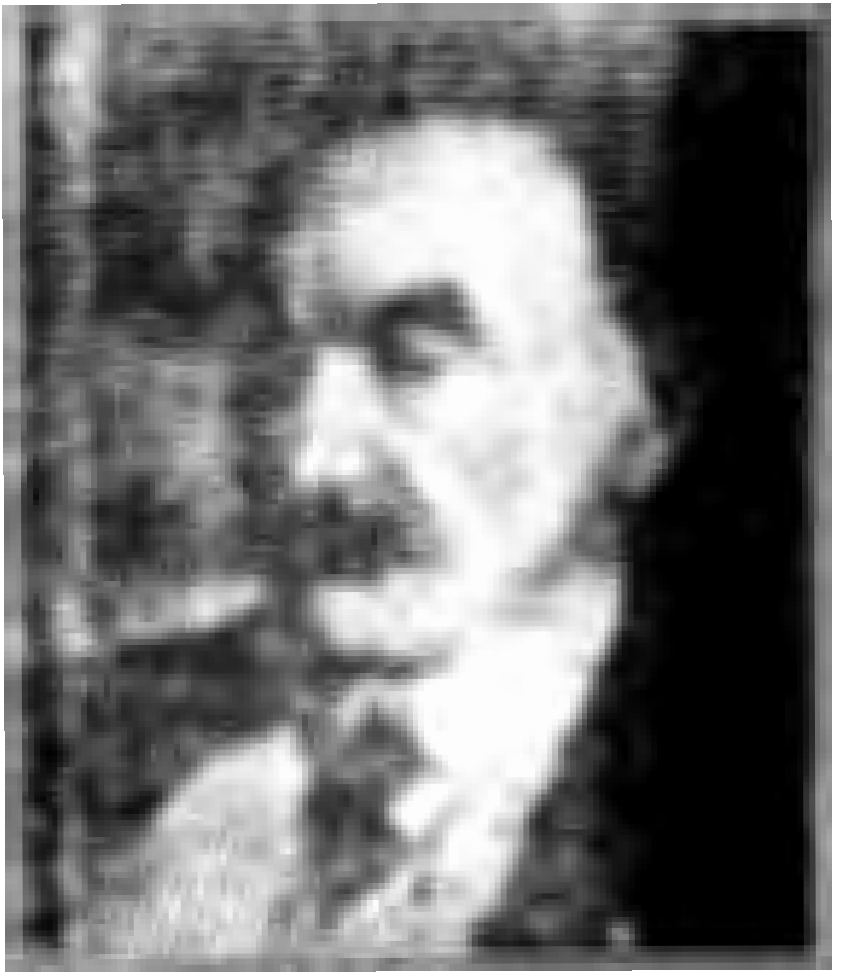

توماس هاردي ... ن الناقد الشهير

الأديب الانكليزي الشهير النوفي حديثاً

مقتطف ابريل ١٩٢٨

راجع الصفحة ٤٢٨

والوصف ما ادهش العالم لانه كان قد شارف الستين من العمر وهي سن يقف عندها اكبر الشعراء عن النظم الغنائي ويميلون في الغالب الى النظم الفلسفي

وكان موضوع الرواية الاولى التي نشرها « ادوية لا فائدة منها » طبعها سنة ١٨٧١ فلم تظهر فيها تلك الآثار التي تنم عن مواهب كامنة لا تلبث ان تصقل بالمراناة وتتجلى لاعين القراء باهرة لامعة . وكانت القصة من نوع القصص الخلابة بوقائعها ومفاجآتها ولكنها لم تبلغ المرتبة الاولى حتى ولا الثانية بين هذا النوع ولم تنل رواجاً ما في سوق الروايات فلم تطبع طبعة ثانية وبيع جانب كبير من نسخ الطبعة الاولى كما يباع ورق اللف بالوزن . وقد حدث احد الكتاب الانكليز المشهورين انه كان سائراً في احد شوارع لندن القديمة حينما عثر على رجل يبيع نسخ هذه الرواية وقد غلفها بورق سخيف كل نسخة منها بشرين مليماً

من لنا بنسخة منها الآن ! اذن لبيعت الواحدة بمئات الجنيهات فان احد الذين يعنون بجمع الكتب النادرة ونسخ الطبعات الاولى من مؤلفات المؤلفين المشهورين كتب في المجلات الانكليزية يقول انهُ مستعد ان يدفع مائتي جنيه ثمن نسخة منها . ومن يعلم أن هذا الثمن لا يتضاعف اذا تبارى اثنان او ثلاثة للحصول عليها

وانقضت على هاري سنة اخرى وضع في اثنائها رواية اخرى موضوعها « تحت شجرة جرينوود » لم يستقبلها الجمهور بما يستقبل به بعض الروايات في هذا العصر من الاقبال العظيم ولا عني بها النقاد فنشروا الاعمدة الضافية في وصف محاسنها ونقد مساوئها . ولكن نفراً قليلاً من القراء الذين ينعمون النظر فيما يقرأون عرفوا ان صاحبها ذو مواهب سامية ككاتب روائي وان روايتهُ هذه اشبه شيء بصورة دقيقة الصنع رسمتها انامل مصور مشهور فرسم فيها ما يُرى ومالا يراهُ الا المتفنن المبدع من جمال انكلترا وحياة فلاحيها . وكان احد هؤلاء القراء رجلاً يدعى قردريك جرينوود وكان محرراً لمجلة كورنهل فلفت نظرهُ اليها ان اسماً كاسمهِ عليها فاشتراها ليتسلى بها في القطار بين مكتبهِ وبيتهِ . فاعجب بما فيها من صدق وبلاغة في وصف روائع الطبيعة وحياة الفلاحين في الريف فدعا صاحبها وعهد اليهِ في كتابة رواية خاصة ينشرها في مجلتهِ تباعاً فوضع هاردي لذلك روايتهُ المشهورة « بعيداً عن الجمهور الصاخب »

وكان يد الطبيعة دفعتهُ منذ البدء ليستعمل ريشتهُ الخلابة ببلاغتها الساذجة ليسخر من الحوادث التي تسوقها الحياة سوقاً اعمى في تصريف شؤون الناس وليصب

جام هزئه على ما في الخلق البشري من سواطن الضعف والوهن . فانهُ في روايته « عينان زرقاوان » التي سبق تأليفها تأليف رواية كورنهل وصف فتاة زرقاء العينين فازت بقلب رجل مهندس يدعى استلفان ستث وكانت على وشك ان تمنحهُ قلبها وتعلق عليهِ من حبها لما غاب ستث عنها لعمل اقتضى سفرهُ فاجتمعت برجل اكمل من ستث رجولة وابهى طلعة والحوادث التي تلي هذا الاجتماع قوام رواية عناصرها الحب المبرح والغيرة اللاذعة تنتهي بحادثة تمثل ما كان يراهُ هاردي في كثير من حوادث الكون والحياة : الخصمان مسافران في قطار واحد غير دارٍ احدهما بالآخر وغير عارفين ان على القطار نفسهِ جثة الفتاة الزرقاء العينين التي من اجلها اختصما . فان امثال هذا الاتفاق الغريب تتردد في كثير من قصص هاردي مع ما يقتضيهِ الزمان والمكان من التغيير . ومع ان هذه الصفة تضؤل كثيراً اذا قسناها بما تتصف بهِ مؤلفاتهُ من الصفات التي تجعلها خالدة بين قراء اللغة الانكليزية فانها ولا شك من ابرز الصفات فيها

اهمل هاردي هندسة البناء وعاد الى مسقط رأسهِ سنة ١٨٨٥ متمماً ان الادب رسالتهُ في الحياة وهناك اخذ على عاتقهِ ان يكون مؤرخ المقاطعة ومصورها . فكأنهُ اقتطع لنفسهِ قطعة من ملك الكنون القديم مساحتها ١٤٠ ميلاً مربعاً تشتمل على مقاطعات دورست ودفون وسمرست وهمشير وولتشير وجعلها ملكاً لهُ وجلس على عرشهِ . هناك اتخذ من شروق الشمس وغروبها . ومن تفريد الاطيار وخرير الجداول ومن تعاقب الفصول ومن حوادث الفلاحين اليومية وما يتخللها من طرب وامى ومن ضحك وبكاء ومن الفة وغيرة حبراً غمس فيهِ ريشتهُ ودوّن آياته الخالدات . انك تقرأها فترى فيها آناً ذلك العبوس وتلك الرهبة التي كانت سدًى ولحمةً لاعظم الملاحمي في عصر الملكة اليزابث . ولكن اللطف في رواياته يحاذي العبوس . والعطف والحنان يقابلان الرهبة والتقطيب . لانهُ دخل الى مكامن نفوس الفلاحين فعرف ما يساورها ولذلك كان ابداً يصبُّ جام نقمتهِ على صروف الاقدار العمياء تعبث بحياة الناس مظهراً ما فطرت عليهِ نفسهُ من الحنان الطبيعي والشفقة غير المتناهية على ضحاياها

وما زال ينشر من مؤلفاتهِ رواية اثر رواية الى اواخر القرن التاسع عشر وقد ضمنها كلها بضع مبادئ بنى عليها عقيدتهُ اولها ان الحياة او الطبيعة تتخذ من النساء حجر عثرة تلقيهِ في سبيل كل رجل يبذل جهداً للتقدم والارتقاء وان في الحياة قوة عمياء تسوقنا الى غايات لا ندريها اقوى جدًّا من كل المساعي التي نبذلها

وقد كتب الكلمة الاخيرة في روايته « يود المهمل » قال النقاد ان القرن التاسع عشر سيطوي معه كاتباً روائيًّا من اكبر كتابه . ولكن هاردي حيرهم حينما نشر في سنة ١٨٩٨ مجموعة قصائد لولا انها مطبوعة بطابع فكره وفلسفته لقيل ان ناظمها شابٌّ تلتهب في صدره حرارة الشباب

وما هي فلسفة هاردي ؟ يصعب جدًّا استخلاص فلسفة منتظمة القواعد والمبادئ من رواياته لان عمل الروائي ليس التبشير بمبدإ ولا اذاعة رأي بل عملهُ استعراض حالات الحياة كما تتراءى لهُ مجسمة في رجال رواياته ونسائها وفي كل حالة من هذه الحالات تتخذ الحياة من الروائي قلماً يدوّن صورها واحوالها . فهاردي بطبيعته رجل هادئ يميل الى الانزواء والتأمل جلس على عرشه في مملكة « وسكس » يتأمل في احوال الحياة واتجاهاتها وآلامها وسخافتها فصوّرها في رواياته صوراً بديعة رائعة مروّعة ولكنها دائماً واضحة جلية كأنها صور فتوغرافية فاذا هي رجالاً ونساء في خضم الوجود تتقاذفهم امواج المصادفات والاقدار العمياء التي يفرحها ان تسلبهم اشهى ثمار سعادتهم وقد كادوا يقطفونها من شجرة الحياة وان تسخر من امنى مبادئهم واشرف اعمالهم وان تدفعهم امامها عن قصد او على غير هدًى الى الاضطراب والفوضى والهلاك الجسدي والروحي . وليس في ذلك تشاؤماً كما يقولون بل هي صورة حقيقية للحياة كما يراها بعض الناس . وقد اشار هاردي الى ذلك في مقدمة احد دواوينه فقال « ان كان لدينا طريق للتقدم والاصلاح فالسير عليها يستدعي النظر ملياً الى كل الشرور »

وبعدما نشر ديوانه الاول سنة ١٨٩٨ اتبعه بديوان آخر سنة ١٩٠١ م بروايته الشعرية الخالدة التي عنوانها « الحيارة » وهي قصة الصراع العالمي في عصر نبوليون فانهُ اخرجها في ثلاثة اجزاء الاول صدر سنة ١٩٠٤ والثاني سنة ١٩٠٦ والثالث سنة ١٩٠٨ . وبقي ينظم الشعر الى آخر ايام حياته . ولم يكن الانتقال من تأليف الروايات الى نظم الشعر انتقالاً فجائيًّا في حياته فان كلَّ قارئ لرواياته يعثر في كل فصل منها بل في كل صفحة من صفحاتها على عبارات وخواطر لا تصدر الا عن مخيلة شاعر مطبوع . وما كانت بحور الشعر واوزانهُ الا قيوداً تقيّد افكارهُ الجنحة التي تكثر في رواياته . فوفاة هاردي ازالت من عالم الادب الانكليزي روائيًّا من اعظم الروائيين وشاعراً اذا لم نضمهُ مع شعراء الطبقة الاولى فلا شك انهُ خالد بخلود اللغة الانكليزية . فخسارة الانكليز بموته كبيرة بقدر الفائدة التي جنوها من حياته الطويلة الحافلة بالمآثر والآيات